بسم الله الرحمن الرحيم

نُخْبَةُ الإِعْلامِ الجِهَادِيّ

قِسْمُ التَّفْرِيغِ وَالنَّشْرِ

تفريغ

شرح حديث كعب بن مالك

رضي الله عنه

لفضيلة الشيخ أسامة بن لادن

حفظه الله

الصادر عن مؤسسة السحاب للإنتاج الإعلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده و نستعينه ونستغفره, ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا, من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له, وأشهد أن لا إله وحده لا شريك له وأشهد أن محمد عبده ورسوله.
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}

أما بعد:

فحديثنا في هذا اللقاء عن حال هذه الأمة العظيمة التي قد دهاها ما قد علمتم من تسلط الكفار عليها وحكمها بغير ما أنزل الله ومن استباحة مقدساتها, وها قد مضى أكثر من ثمانية عقود على احتلال فلسطين ما بين أيدي النصارى ومن بعدهم اليهود, وقد مضت عشرة أعوام على احتلال الصليبيين يتزعمهم الأمريكيون, احتلوا المسجد الحرام و احتلوا بلاد الحرمين ولا حول و لا قوة إلا بالله!

وبرغم هذه المصائب العظام والفواجع الجسام ما زال الناس في تيه عظيم لم يحركوا ساكناً لنصرة لا إله إلا الله فإلى الله المشتكى ولا حول و لا قوة إلا بالله!
وكثر المتؤولون الذين سوغوا القعود بحجج كثيرة إلا أن المؤدى أن أهل الإسلام يهانون وأن شرع الرحمن قد أبعد عن أن يحكم العباد كشرع ربنا سبحانه وتعالى.

أُبعِد عن الناس والناس كما قلت تائهون بعيدون عن منهج محمد صلى الله عليه وسلم في الحل لرفع الذل والهوان, ومن السبل العظيمة لتبيُّن الصواب أن نتذاكر كيف كان عهد أولئك السلف رضي الله عنهم, كيف كانت حياة الصحابة الكرام رضي الله عنهم, يتضح لنا بجلاء الحق من الباطل, يتضح الحق بصورة واضحة بإذن الله سبحانه وتعالى.

وتدبرت في سيرتهم رضي الله عنهم فمن أوضح ما رأيت في هذا الميدان حديث كعب بن مالك رضي الله عنه كما في الصحيحين وغيرهما.
هذا الحديث العظيم الطويل اعترف فيه هذا الصحابي الجليل بوضوح عن طبيعة النفس البشرية وعن ضعف النفس البشرية ولم يمارِ أو يجادل أو يكذب رضي الله عنه, كما كذب الذين حلفوا كذباً فأهلكهم الله سبحانه وتعالى وقال لهم شرَّ ما قال لأحد.

تدبروا معي هذا الصدق وهذه الصراحة وهذا الوضوح حتى نعرف طبيعة الذين قعدوا عن هذا الجهاد, ونحاول أن نعالج أنفسنا وننصح أيضاً لأنفسنا ولإخواننا ولعلمائنا نرجو الله أن يردنا وإياهم رداً جميلاً.
يتحدث كعب بن مالك رضي الله عنه عن غزوة تبوك التي تخلف عنها وهو من هو من السابقين من الأنصار رضي الله عنهم, وهو من هو, هو أحد الذين حضروا وشهدوا وبايعوا يوم بيعة العقبة تلك البيعة العظيمة التي قامت عليها بفضل الله دولة الإسلام, قامت دولة الإسلام في المدينة المنورة و ما نحن إلا ثمرة من تلك الثمار المباركة.

يقول ما تخلفتُ عن غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم قط إلا غزوة بدر ولم يعاتب الرسول عليه الصلاة والسلام أحداً غاب عنها, فهو من أهل المشاهد حضر المشاهد كلها مع

رسـولنا عليه الصـلاة والسـلام إلا بدراً, فهو ممن تمعمع في الحروب وقدم نحره للذود عن لا إله إلا الله, ولكن الإنسان, يبقى الإنسان إنساناً قد يستزله الشيطان ويضعف في موطنٍ وتخادعه نفسه وهذا ما وضحه رضي الله عنه بجلاء.

يقول فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو عندما اشتد الحر والناس قائلون تحت نخيلهم والنخل قد أتى بزهوه و بدأ ينضج, يقول وكنت إليها أصعق أو أميل بمعنى أنه كان يميل إلى ذلك الظل وإلى تلك الثمار, فهذه طبيعة النفس البشـرية نقرؤها في أولئك العظام رضـــي الله عنهم فإذا تخلف أولئك العظام فلا يفُتُّ في عضــدنا أن يتخلف اليوم بعض الخيار فقد تخلف من هو خير منا ومنهم كما في الحديث هذا الذي جاء كما ذكرت في الصحيحين.

وكنت إليها أصـــعق وأميل, قال فبدأ الناس يتجهزون, وقلت أُجهز أمري فمضـــى بعض الوقت مضى اليوم الأول ولم أقض من جهازي شيئاً, قال وقلت أتجهز غداً قال و ما قضيت شيئاً, وقلت في نفسـي – انتبهوا هذا نص كلامه هنا – وقلت في نفسـي إني قادر على أن أسـير معهم, فالنفس تخادع صـاحبها وهو الذي ألف الجهاد فقال هذه مسـألة بسـيطة أنا أسـتطيع أن أخرج, وقلت في نفسي أستطيع أن أخرج وأنا قادر على ذلك قال وما زلت على تلك الحال حتى تفارط الغزو وسار ذلك الموكب الرهيب ذلك الموكب العظيم قائده محمد صـلى الله عليه وسـلم ومعه أبو بكر وعمر والصحابة الكرام.

ساروا, أكثر أهل السِيَّر على أنهم كانوا ثلاثين ألفاً رضـي الله عنهم, هنا لا بد للمسلم أن ينتبه من مخادعة النفس, فكم من جالس وكم من قاعد عن نصـرة لا إله إلا الله تخادعه نفسـه أنه لو أراد أن يخرج لخرج, ولو أراد أبوه أو زعيمه أو من يشـير عليه أن يخرج لخرج ولكن مصـلحة الإسـلام أن لا يخرج! هذا من الوهم البيّن الواضح ولا حول و لا قوة إلا بالله.

فهذا خادعته نفسـه وهو الذي جرب نفسـه في الهيجاء وفي المعامع والأنصـار هم أبناء الحلق وهم أبناء الحروب ورثوها كابراً عن كابر, خادعته نفسـه! فكيف بالذي لم يخرج للقتال قط؟ و لا حول و لا قوة إلا بالله في سـبيل الله, أما يسـهل على نفسـه أن تخادعه؟ أولئك عاشـوا في تلك الحياة الصـعبة لا كهرباء ولا مكيفات ولا شـيء, الزهو ظهر في النخل فأثقله إلى الأرض, فكيف بالذين توسـعوا في المباحات حتى تجاوزوها, غارقون في الترف حدث ولا حرج ولا حول ولا قوة إلا بالله! كيف لهؤلاء أن لا تخادعهم أنفسهم إلا أن يشاء الله.

خرج الناس ووقع كعب في هذه الكبيرة العظيمة الشـنيعة, قعد عن نصـرة لا إله إلا الله, قعد عن نصرة التوحيد, عن نصرة العقيدة, تثاقل إلى بعض متاع الحياة الدنيا على قلته في تلك الأيام.

كان الجو حاراً وفي بعض الآثار الأخرى في تبوك يقول عمر رضـي الله عنه: كان الواحد منا إذا خرج إلى راحلته يشـعر أن عنقه قد انقطع من شـدة القيظ والحر, وماذا قال أهل الدنيا, ماذا قالوا؟ (وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ), فهم يحضرون أحاديث رسولنا عليه الصـلاة والسـلام ويحضـرون خطب الجُمَع فيعلمون ما يقول يقولون بلسـانهم ولكن الفقه فقه القلوب فقه الخشـية, ما كانوا يفقهون ولو علموا وعرفوا وإلا لو فقهوا لعملوا أن نار جهنم أشـد حراً, أشد حراً.

واليوم ماذا يقال لإخواننا؟ يقال لهم: إن السياط إذا رجعتم تنتظركم وإن السياط في السجون حارة, ويقال لهم: إن المباحث والأمن يتابعكم, فنقول لهم: (قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَـدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ), فنرجو الله أن يمن علينا وعليكم و بالفقه والعلم.

أيام معدودة, أنترك جنة ربنا سبحانه وتعالى من أجل تهديد البشر؟ لا والله, من أيقن أن الآجال محدودة لا تتقدم ولا تتأخر, ومن أيقن أن الأرزاق معلومة لا تزيد ولا تنقص لا يبالي, كما في حديث نبينا عليه الصلاة والسلام يعلم الغلام عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: " يا غلام، إني أُعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأُمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف " هذا الحديث يدرس للمسلمين ويعلم أهل الإسلام العلم فهذا من نعم الله علينا ولكن شباب الإسلام يحتاجون أن يعلموا مع العلم أن يعلموا العمل بهذا العلم أن يصدعوا بالحق من أجل لا إله إلا الله فتكتمل المسألة, أما أن تعلم العلم ولا تعمل به فهو حجة عليك لابد من الأمرين علم وعمل بهذا العلم, فثمرة العمل الخشية, خشية الله سبحانه وتعالى, وثمرة العلم أن نعمل على السبيل الذي بينه محمد صلى الله عليه وسلم لننال رضوان الله سبحانه وتعالى.

بعد ذلك لما تفارط الغزو قال كعب كنت أريد أن ألحق بهم ولم يقدر ذلك لي قال: و يا ليتني فعلت. تلك الغزوة العظيمة المباركة كانت من آخر ما غزا رسولنا عليه الصلاة والسلام فضاعت منه فرصة عظيمة فضلاً عن ارتكاب تلك الكبيرة الشنيعة, ويا ليتني فعلت.

فيا عبد الله اغتنم صحتك, واغتنم فراغك وشبابك, هذه ميادين الجنان قد فتحت وقد صح عن نبينا صلى الله عليه وسلم: "إن أبوب الجنة تحت ظلال السيوف", فلما قال هذا الحديث أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قال رجلٌ: "يا أبا موسى أأنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟", انظروا إلى فقههم يريد يعلم حتى يعمل لا ليستكثر بالعمل فيكون حجة عليه فلا بد من العلم والعمل, أأنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ يريد أن يتأكد أن الحديث صحيح, قال: نعم, فمضى إلى قومه فقرأ عليهم السلام وأخذ جفن سيفه فكسره وذهب فقاتل حتى قتل رحمه الله.

هذا هو منهج الصحابة الكرام, منهج سلفنا رضي الله عنهم قال: فيا ليتني فعلت, فالفرصة عندك الآن قبل أن يأتي يوم تقول يا ليتني فعلت.

يروى أن بعض العلماء الصالحين حضرته الوفاة وهو على فراش الموت ذرفت عيناه وهو من أفاضل الناس تقى وتعليماً, فقيل له: ما يبكيك؟ وهو ينظر إلى قدميه, قال: أبكي لأني لم أغبر قدميّ في سبيل الله.

وتعلمون الحديث الصحيح عن نبينا عليه الصلاة والسلام: "ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسهما النار" الله أكبر! عبادةٌ مجرد غبارها يقيك من النار فكيف بمن خرج بنفسه وماله ولم يرجع من ذلك بشيء؟ هو أفضل الأعمال هذا العمل كما في صحيح البخاري عند السؤال عن تفاضل الأعمال وأفضلها فقال عليه الصلاة والسلام: "ورجل خرج يخاطر بنفسه وماله في سبيل الله" وكثير من إخواننا يخوفوننا الخطر! الخطر الحقيقي في القبر نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعله روضة من رياض الجنة, الخطر الحقيقي يوم الحساب يوم القيامة يوم التغابن تأتي وقد غُبنت ذهب عمرك في خذ وهات وفي قال وقيل في أمور وأنت قاعدٌ عن نصرة لا إله إلا الله, قال تعالى محذراً للمؤمنين من أن يقتربوا من صفات المنافقين لأن من أبرز صفات المنافقين القعود عن نصرة الله (وَجَاء الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ) عافنا الله وإياكم من أن نقعد عن نصرة الله ونصرة رسوله صلى الله عليه وسلم.

انظروا إلى أولئك السـلف, بيّن في حديثه رضـي الله عنه قال: فلما تفارط الغزو كنت أخرج في المدينة وكان مما أحزنني أنني لا أرى في طرقات المدينة إلا رجلاً مغموصـاً عليه بالنفاق أو رجلاً من أهل الأعذار, هؤلاء هم سلفنا رضي الله عنهم.
عندما جاء الخبر أن الروم "يفكرون" في أن ينالوا من أهل الإسـلام, لم يدخلوا أرض الإسـلام مجرد جاء الخبر أنهم يفكرون أن يحتشدوا, خرج قائدنا وأسوتنا محمد صلى الله عليه وسلم ودعا في الناس يا خيل الله اركبي فما قعد إلا منافق أو رجل من أهل الأعذار.

فانظر يا عبد الله إذا أردت النجاة فأقتدِ بأولئك الكرام رضي الله عنهم بمحمد عليه الصلاة والسلام والذين معه (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ) فالاتباع اتباع كامل في ما أحببت وفي ما كرهت كما في حديث عبادة رضـي الله عنه: "بايعنا رسـول الله صـلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر, والمنشط و المكره", الناس تكره القتال لا بد عليك من أن تؤدي الأمانة التي اؤتمنت عليها.

فهذا هو الحال أنه كان لا يرى رجلاً إلا من أهل النفاق أو رجلاً من أهل الأعذار, فلما وصـل رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم إلى تبوك قال: "ما فعل كعب ابن مالك؟" تذكّره, فقال رجلٌ من بني سلمة: "شغله برداه والنظر في عطفيه", تكلم عليه, لأنه قعد عن نصرة الدين وجعل نفسه في موطن ما ينبغي لأهل الإيمان أن يقعدوا عن نصـرة الدين, فرد معاذ بن جبل رضـي الله عنه قال: "بئس ما قلت فوالله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً", قال ابن حجر عند قول الرجل الذي قال من بني سـلمة: ما قلت لكم أن الذي يقعد عن الجهاد هو قد جعل مبرراً للناس أن يطعنوا فيه لأن نصـرة الدين من أعظم الواجبات, نرجو الله سـبحانه تعالى أن يتوفانا ونحن قائمون بأداء الأمانة في نصرة دين ربنا حتى نلقاه وهو راضٍ عنا.

فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مُبيضّاً يزول به السراب, رجل قادم من بعيد, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كن أبا خيثمة", فإذا هو أبو خيثمة الأنصـاري رضـي الله عنه, جاء بعدهم بعد أن ساروا, سار وحيداً لم ينتظر رفقة القاعدين, كاد الشيطان أن يزيغه وهو صحابي كريم رضي الله عنه.
أورد ابن حجر في فتح الباري بعض كلام أهل المغازي عن قصـة أبي خيثمة, يقول: "دخلت داري فرأيت عريشـاً قد رش بالماء -وما أجمل العريش إذا رش بالماء في الصـيف!-, فرأيت عريشًـا قد رش بالماء ونظرت إلى زوجتي -انظروا إلى أهل الإيمان انظروا إلى أهل العقيدة الصـحيحة واليقين المتجذر- فقلت: والله ما هذا بالإنصـاف, رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم في الضـحّ و الحرور وأنا هنا في الظل والنعيم ", فأخذ راحلته وقليلاً من التمر وسـار حتى لحق برسولنا عليه الصلاة والسلام, ولأي شيء خرج محمد صلى الله عليه وسلم؟ ألم يخرج من أجل لا إله إلا الله؟ فما بالنا قعدنا عن نصـرة لا إله إلا الله؟ ونظن أننا قد نصـرناها وقد غيبت عن أن تحكم الناس و لا حول و لا قوة إلا بالله.

ونحن سـنقف على بعض العبر في حديث كعب لنتدبر ولن نمر على جميع ما فيه من عبر فقد أفاض أهل الشروح, شروح الحديث, كالنووي ورحمه الله وابن حجر رحمهم الله جميعاً.
يقول: فلما رجع رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم حضـرني بثي وهمي فقلت بمَ أخرج منه؟ قال فجئته فتبسم تبسم المغضب, غاضب عليه الصلاة والسلام على كعب, أورد ابن حجر أيضاً كلاماً لبعض أهل المغازي قال: فأعرض عني -أي كعب يتكلم أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم أعرض عني- فقلت: يا رسول الله لمَ تُعرض عني فوالله ما نافقت ولا ارتبت ولا بدلت, أمر عظيم عظيم جداً ترك نصـرة الدين, قال: لمَ تعرض عني فوالله ما نافقت ولا ارتبت ولا بدلت, فجاء

الجواب قوياً حاسماً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما خلفك؟" سؤال سيسأل عنه الناس! ما خلفك عن نصرة لا إله إلا الله؟ ما خلفك؟

نرجو الله سبحانه تعالى أن يشرح صدور علمائنا إلى أن ينتبهوا إلى سيرة سلفنا, ويفتوا الأمة بفرضية عَين الجهاد الذي قد أجمع السلف على أن الجهاد يتعيّن في مواطنٍ فذكروا منها إذا دخل العدو أرض الإسلام وها قد دخل أرض الإسلام منذ عقود بعيدة ولا حول و لا قوة إلا بالله, فمن المسؤول عن لا إله إلا الله؟ إذا كل واحد منا يتعذر بالأعذار من المسؤول؟ أيذهب دين الله سبحانه وتعالى يُعتدى عليه ونحن غير مسؤولين؟ لا بد من المراجعة حتى نقيم الحق بإذنه سبحانه وتعالى.

فهنا اعتراف واضح وبيّن من كعب فيه عبرة لأولي الألباب, فيقول كعب: قلت يا رسول الله والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر -انتبهوا يا عباد الله- ويكمل كعب ويقول: ولقد أوتيتُ جدلاً, كثيرون اليوم أوتوا الجدل, فالنصوص الواضحة البيّنة من كتاب الله ومن سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يصرفوها بصوارف لا تغني ولا تسمن من جوع, بأقوال, يقولون ليس وقته, إذاً متى وقته؟
ها قد سقطت الأندلس بلاد الإسلام منذ أكثر من خمسمائة عام خمسة قرون! متى وقته؟ كلما جاء واحد يحيلنا إلى مجهول يقول ما جاء وقته, وهل الآيات والأحكام نزلت حتى تصرف إلى مجهول وإلى العبث؟
هذه العبادة العظيمة التي بها يُعَبَّد العباد لرب العباد سبحانه وتعالى كما ذكرتُ في الصحيحين "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة", أُمر بالقتال من أجل العبادة فيكف نحن نريد أن نُعبّد الناس بغير منهج محمد صلى الله عليه وسلم؟ وظهرت الزندقة في جميع بلاد الإسلام يكفر بالله ورسوله عليه الصلاة والسلام على صفحات الجرائد و لا حول و لا قوة إلا بالله.

فهنا احذروا من الجدل ودع عنك الناس, اتبع أولئك السلف رضي الله عنهم إمامهم وقائدهم محمد عليه الصلاة والسلام.
يقول: لقد أعطيت جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذبٍ ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي.

اليوم يا عبد الله يسألك عمرو لماذا لا تخرج؟ نفسك تخادعك وتخادع أخاك, ولكن يوشك الله أن يسخط الناس عليك نتيجة لغضبه سبحانه وتعالى عن من خذل دينه و لا حول و لا قوة إلا بالله.
فيكمل رضي الله عنه: ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه إني لأرجو فيه عقبى الله.

كنت قبل ما يقارب عشرين سنة أمُّر على علمائنا ومشايخنا أطلب منهم أن يخرجوا للجهاد عندما بدأ الجهاد الأول ضد الروس, فكثيرون يأتون بكثير من الأعذار, وقليلون كانوا قريبين من منهج كعب رضي الله عنه ما زلت أذكر كلام بعضهم يقولون: يا أسامة, اذهبوا و امضوا على بركة الله فما أنتم عليه هو الحق وهو السبيل ولكننا ما ألفناه ولا اعتدناه وإننا نخاف منه و الإنسان عدو ما يجهل. فما ألفوا هذا لأن هذه العبادة قد مرّ عليها كما ذكرت عقود طويلة دون أن يمشي أهلها بين الناس.

فيقول هنا بعد ذلك: والله ما كان لي عذر, يُقسم بالله أنه لم يكن له عذر, وكثيرون اليوم ليس لهم عذر إذا اتبعوا منهج كعب رضي الله عنه, والله ما كان لي عذر, والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حالة مني حين تخلفت عنك, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما هذا فقد صدق".

قبل أن يمن الله سبحانه وتعالى عليه بأن يجمع ويعزم الأمر على الصدق لما بلغه رجوع الرسول عليه الصـــلاة والســـلام قال: فطفقتُ أتذكر الكذب, هذا اعتراف مهم جداً لنعرف طبيعة النفوس, فكثير من الناس اليوم لســان حالهم يتعاملون مع الناس على أنهم معصــومون, يقولك: لا فلان هو لو كان الجهاد الآن أهم لذهب, هذا الصـــحابي الجليل من الســـابقين رضـــي الله عنهم يعترف في الصـحيحين وغيرهما يقول: فطفقت أتذكر الكذب, فالنفس مسـاربها كثيرة والشـيطان يجري منها مجرى الدم نعوذ بالله منه, ولكن مِن توفيق الله عليه أنه عزم على الصـــدق فكان له منجاة بفضـــل الله سبحانه وتعالى كما سيأتي معنا.

يقول فلما خرجت ثار رجالٌ من بني سلمة أي من قومه فما زالوا يؤنبونني, يعاتبوه لماذا قلت هذا الكلام لو اعتذرت بأي عذر كان يكفيك اســتغفار رســول الله صــلى الله عليه وسـلم, انتبهوا إلى ضــعف النفس البشــرية حتى عند الكرام رضـــي الله عنهم, قال فما زالوا يؤنبونني حتى كدت أن أرجع فأكذب نفسي.

فضـغط المجتمع وضـغط الأهل وضـغط البيئة شديد جداً حتى على أولئك الكرام رضـي الله عنهم, فكيف باليوم والكثرة الكاثرة انقلبت الموازين, أصبحت الكثرة الكاثرة هم الذين يقعدون عن الجهاد وقلة ما تذكر وفقها الله ســبحانه وتعالى فله الحمد و المنة نرجوه ســبحانه وتعالى أن يثبتنا ويثبت هذه النعم علينا إلى أن نلقاه وهو راضٍ عنا.

يقول: ثم قلت لهم هل لقي هذا معي أحد؟, قالوا: نعم لقيه معك رجلان قالا مثلما قلت فقيل لهما مثلما قيل لك, فذكر رجلين هما مرارة ابن الربيع وهلال ابن أمية قد شـهدا بدراً رضـــي الله عنهما كما في بعض الروايات.

ثم جاء الأمر بالمقاطعة, بالهجر, هَجْر الذين يقعدون عن نصــــرة لا إله إلا الله, يقول: فتنكرت لي الأرض فلا هي بالأرض التي كنت أعرفها و تنكرت لي نفســي, ومن يهجرك يا عبد الله؟ يهجرك سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام الذي إذا غضب عليك يغضب لغضبه رب السموات والأرض سبحانه وتعالى.
أمر عظيم جداً, وما يعني تخلف ثلاثة من أصل ثلاثين ألفاً؟ عدد لا يؤثر في الجيش, ولكنها مسألة داخلة في القلوب لماذا هذا القلب قعد عن نصـــــرة لا إله إلا الله, ليس مهم هنا أن يؤثر أو لا يؤثر, عليك أمانة وعليك فريضة كان ينبغي أن تقوم بها.

فهُجِر فتنكرت له حتى تنكرت له نفســه قال: فلما طال الأمر عليّ من جفوة المسـلمين جاء رسـولٌ من مَلِك غسان, وتعلمون أن الغساسنة هم من بني قيلة وبينهم وبين الأوس والخزرج نسب فأمهم واحدة, فوصـل الخبر إلى الغســاســنة فأرسـل ملكهم يقول له الحق بنا نواسـك بأموالنا ولا تبقَ في ديار هوانٍ ومضـــيعة, فيقول كعب: حتى الكفار طمعوا فيَّ, طمع فيّ أهل الشـــرك, وكذلك الحال الذين يقعدون عن الجهاد يطمع فيهم الحكام الخونة العملاء, يطمعون فيهم ويزيدون من إزاغتهم عن نصرة لا إله إلا الله (وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ) عافنا الله وإياكم منها.

قال فأخذت الكتاب أو الصفيحة فسجّرتها -وضعها في تنور- فلما ضاق الأمر عليه قال: فتسورت حائط لابن عمي أبي قتادة وكان أحب الناس إلي, فقلت: يا أبا قتادة أنشـدك بالله, انتبهوا يا عباد الله ارتباط الإيمان بالجهاد و ارتباط الجهاد بالإيمان, ضـاقت عليه الأرض وضـاقت عليه نفسـه, خير البرية قاطعه عليه الصلاة والسلام فكيف تسعه الأرض وكيف تسعه نفسه؟ قال: قلت يا أبا قتادة, ذهب عن أي شيء يطمئن؟ من شدة الضيق ذهب يطمئن عن أعظم شيء في القلوب, عن الإيمان, أراد أن يطمئن عن حب الله وحب رسوله عليه الصلاة والسلام.

أنشدك بالله يا أبا قتادة هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ الله أكبر, جرمٌ عظيم جداً أن تخذل لا إله إلا الله, وهل نوّر قلوبنا إلا لا إله إلا الله؟ فيكف تترك هذه الكلمة العظيمة وتقعد مع الخوالف وتزعم أنك تحب الله ورسوله؟!
قال: فلم يجبني, مقاطعة! حتى يقول في أول الرواية فسلمت عليه فلم يرد عليّ السلام, أحب الناس إلي, التزاماً بأمر الله لتنفيذ هذه العقوبة على هؤلاء الذين قعدوا عن نصـــرة الله إلا أن الله تغمدهم برحمته بعد ذلك وتاب عنهم رضـي الله عنهم, قال فناشـدته الثانية: هل تعلم أني أحب الله رسوله؟ قال: فلم يجبني, فناشـــدته الثالثة: هل تعلم أني أحب الله ورسـوله؟ قال: الله ورسـوله أعلم, يقول كعب: فتوليت وفاضت عيناي, يبكي! لأن أعظم شـيء في الوجود هو إيمانه بالله, لم يستطع أحب الناس إليه أن يثبت له هذا الأمر العظيم فما قيمة الحياة؟ فلم يثبت له ذلك ولم ينفه عنه, قال الله ورسوله أعلم.

يقول رضـــي الله عنه بعد ذلك, من المواقف التي نقف عليها, فلما مضـــى لنا أربعون يوماً جاء رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وقال: يأمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم -انتبهوا يا عباد الله من أخص خصوصيات الرجال بيوتهم ونساؤهم- جاء الأمر باعتزال زوجته, باعتزال أم عياله, قال يقول لك رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم اعتزل زوجتك, القلوب الحية إذا غفلت تذكرت ورجعت إلى الصـواب شـعروا بعظيم الجرم بترك لا إله إلا الله, قال يأمرك أن تعتزل زوجتك, قال: أطلقها أم ماذا؟ كان مستعداً رضي الله عنه أن يطلق أم الأولاد من أجل أن يرضى الله سبحانه وتعالى, قال: لا ولكن لا تقربنها, فقال لأهله: الحقي بأهلك حتى يقضي الله في أمرنا.

بكلمات الله بهذا الدين استحللنا فروج النساء على كتاب الله وعلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ربنا سـبحانه هو الذي خلقهن لنا (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) من فضـل الله هذه المرأة عليك في خلقتها وفي زواجها, سـكن ورحمة ومودة, فكيف تخذل هذا الدين الذي كان سبباً في الإنعام عليك في كل شيء, وكيف تخذل دين ربك سبحانه وتعالى الذي أوجدك من العدم بلا حول منك ولا قوة ولا طول.

قال وكنت أشـب القوم -كما في بداية الحديث-, فأما صـاحباي فقد اسـتكانا وقعدا يبكيان, فالقلوب الحية إذا ذُكّرت تذكرت, يبكيان لمدة أربعين يوماً, فبُعث إليهما أيضاً أن اعتزلوا نساءكم, فجاءت زوجة هلال ابن أمية رضـي الله عنه فقالت: يا رسول الله -انتبهوا يا عباد الله- قالت يا رسول الله إن هلالاً شيخٌ ضائع أتكره أن أخدمه؟ رجل كبير في السن شيخ ضائع! لكن لما تخلف عن نصرة الجهاد جاءه العقاب, كان يستطيع أن يخرج فيكثر السواد ويحفظ المتاع رضـي الله عنه, إن هلالاً شيخ ضـائع أتكره أن أخدمه؟ قال: "لا ولكن لا يقربنك" قالت والله ما فيه حركةٌ إلى شـيء رضـي الله عنهم أجمعين.

فما عذرك يا عبد الله أن تقعد عن نصـــرة لا إله إلا الله وقد أغناك الله سـبحانه وتعالى بالصـــحة والبصـــر والفؤاد وبالمال, تذهب إلى مشـــارق الأرض ومغاربها فكيف تقعد عن نصـــرة خالقك ومولاك سبحانه وتعالى.
اغتنم شـبابك وصـحتك وغناك وحياتك قبل أن يأتيك الموت فجأة ولا ينفعك وقتها الندم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يقول بعد ذلك رضـــي الله عنه مكملًا هذه القصـــة العظيمة التي تُبيّن طبيعة النفس البشـــرية في تعاملها مع هذه العبادة مع عبادة الجهاد, يقول أن زوجة هلال رضي الله عنه قالت: والله يا رسول الله إنه ما زال يبكي في بيته منذ أن كان منه ما كان.

فالنفوس الأبية الحرة المؤمنة يقتلها ارتكاب المعاصي وتغسل الذنوب بدموعها, أولئك رضي الله عنهم يوم غزوة تبوك جاؤوا يريدون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحملهم إلى الجهاد فلم يكن عنده ما يحملهم عليه الصلاة والسلام, فلما اعتذر منهم ماذا قال سبحانه وتعالى واصفاً حالهم في كتابه (تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ).

فكيف بالذي قاربته المنية وما غزا قط في سبيل الله سبحانه وتعالى لا يذرف دمعة ولا يشعر ولا يتمعر وجهه بمصائب أهل الإسلام وبمصيبة المسلمين العظيمة في دينهم ولا حول و لا قوة إلا بالله.

يقول بينما أنا جالسٌ على الحال التي ذكرنا وإذا بصوتٍ يصل إليّ مُبشراً, رجل بعد أن نزلت التوبة على رسولنا عليه الصلاة والسلام, رجلٌ صعد إلى جبل سلع وصاح بأعلى صوته يبشر كعب يقول: فخررت ساجداً باكياً من الفرح بتوبة الله عليه, لأن خذلان لا إله إلا الله من أعظم الكبائر.
نختصر, بعضهم أرسل له فَرَس وبعضهم ذهب يسعى ليبشره من اهتمام الصحابة على توبة الله على أخيهم الذي ارتكب هذا الجرم العظيم, يقول فلما جاء الذي سمعت صوته أعطيته ثوبين, ثم ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم, انتبهوا يا عباد الله إلى حال السلف رضي الله عنهم.

قال: فقام الناس يهنئونني لتهنك توبة الله عليك ويبشرونني, أفواج, لنزول التوبة على ارتكاب هذا الجرم العظيم الذي ارتكبوه بخذلان لا إله إلا الله, فيقول: سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من السرور سروراً بنزول التوبة, قال: قلت يا رسول الله: أمن عندك أم عند الله؟ قال: "لا بل من عند الله سبحانه وتعالى", فقال فيا رسول الله -انظروا إلى كيف يتعامل الصحابة رضي الله عنهم مع عبادة الجهاد تخلف مرة واحدة و غزا مراراً كثيراً- قال: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من جميع مالي, فبيّن له عليه الصلاة والسلام يكفيه أن ينخلع من ثلث ماله رضي الله عنه.

فاليوم لم يُطلَب منك جميع مالك وهو مال الله سبحانه وتعالى فاخرج و اغتنم الفرصة قبل أن يأتي يوم التغابن وتكون قد غبنت في ساعاتك و سنينك التي مضت, ففي الصحيح صح عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال: "قيام ساعة في الصف للقتال في سبيل الله خير من قيام ستين سنة " فأي غبن أكثر من هذا؟ ساعة في الصف تستطيع أن تذهب إليها لنصرة لا إله إلا الله ضد اليهود والنصارى وأعوانهم والمجال بفضل الله مفتوح وميسر للإعداد والتدريب و الانطلاق لنصرة لا إله إلا الله وتقعد؟ هذا في حال فرض الكفاية "قيام ساعة في الصف للقتال في سبيل الله خير من عبادة ستين سنة" وفي الحديث الآخر: "رباط شهرٍ خيرٌ من صيام دهر", فخير عظيم وكرم جم من أكرم الأكرمين سبحانه وتعالى.
إلى أن يقول, قال فقلت فإني أمسك سهمي الذي بخيبر, قال وقلت: يا رسول الله إن الله إنما أنجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً, فيقول رضي الله عنه فوالله ما علمت
-يذكر فضل الله سبحانه تعالى عليه في أن هداه إلى الصدق وأنه كان من أعظم نعم الله سبحانه وتعالى عليه, أن الصدق نجاه حتى لا يكون قد هلك كما هلك أولئك- قال: فإن الذين كذبوا فإن الله سبحانه وتعالى قال لهم شرَّ ما قال لأحد.

الذين قعدوا عن نصرة لا إله إلا الله أثبت الله سبحانه وتعالى حالهم ووصفهم وفضحهم في سورة الفاضحة في سورة براءة في سورة التوبة فضحت المنافقين فاقرؤوها بتدبر فليخلوا كل واحدٌ منكم مع آيات القرآن ومع آيات القتال ومع آيات الجهاد وسور القتال ليرى أين هو أهو على منهج

محمد صلى الله عليه وسلم أم هو قد ابتعد عن هذا المنهج و اقترب من صفات القاعدين و لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال تعالى مُحذراً: (وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ), أُولو الطول في المال وفي الصحة وفي القوة وفي العقل وفي البصر, في كل شيء مدهم الله بنعمه, من الذي استأذن؟ هؤلاء الذين ما نقموا إلا أن الله أغناهم سبحانه وتعالى (وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ) هذه العبادة العظيمة جاءت بين لفظ الجلالة وبين رسولنا عليه الصلاة والسلام (وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ * رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ), رضوا بأن يكونوا مع النساء.
النساء الآتي ذكرتُ في شأنهن ما ذكرت ليس عليهن جهاد وإنما عليهن جهاد لا شوكة فيه الحج كما قال عليه الصلاة والسلام, هؤلاء الحرائر أُحِلوا لنا على كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والإسلام, لم يبايعهن رسولنا عليه الصلاة والسلام إلا على الإسلام, فكان يبايع النساء والعبيد على الإسلام, ويبايع الرجال الأحرار على الإسلام والجهاد, فكيف بك إذا صرت مثلها؟ نأتي بالنصارى بل ببنيات اليهود و النصارى يدافعوا عن بلاد الحرمين؟ عن أحفاد سعد والمثنى؟ أليس هناك رجال؟ والله هذا لا يرضاه أجدادنا قبل الإسلام فكيف وقد منّ علينا سبحانه وتعالى بهذا الدين العظيم والصراط المستقيم؟! لا حول و لا قوة إلا بالله و إلى الله المشتكى.

فبعد ذلك, ذكرنا حال المنافقين تحذيراً منهم, ففي غاية الذم أن يوصفوا بالرضا مجرد الرضا (رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ * لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).
شهادة من رب العالمين بفلاحهم وصواب طريقهم, فإن كنت من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ومن أتباع سلف الأمة رضي الله عنهم فهذا هو السبيل, واضح بيّن, أولئك رضوا بأن يكونوا مع الخوالف, تحذيراً للمؤمنين من أن يسلكوا سبيل المنافقين, وجاء الاستدراك (لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ) فإن كنت من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم فهذا هو السبيل (جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ), فأولئك الذين قعدوا و خادعتهم أنفسم وكذبوا على الله ورسوله عليه الصلاة والسلام.

قال كعب كان يحمد الله أنه لم يصبه ما أصابهم لو كذب وقعد, وكان مما قال قبل ذلك لما قيل له أنك تعتذر ويكفيك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا أجمع بين القعود والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم, تدبروا يا عباد الله فمن أبتلي بالقعود فلا يجمع بين القعود وبين تخذيل المؤمنين عباد الله عن الجهاد في سبيل الله, فلمَ تبخل وتأمر الناس بالبخل؟ فهذه من الصفات الشنيعة ذم الله سبحنه وتعالى (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) فالبخل بالمال مصيبة إذا ابتلاك الله بالشح والجبن فاستغفر لذنبك فلمَ تأمر غيرك وما مصلحتك في أن يتخلف الناس عن إنفاق أموالهم في سبيل الله؟ وما هي مصلحتك أن يتخلف الناس عن أن يذودوا عن دينهم؟ شبه تثور يلقيها الشيطان على الناس (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ).

لو خرج بضعة عشر ألف لتمت الكفاية بإذن الله الواحد الأحد, أقول كلاماً عن علم في هذا السبيل وفي هذا الميدان بفضل الله, ولله الفضل و المنة منذ أكثر من عشرين سنة.
فكيف سيخرج الناس؟ يأتون بأعذار واهية يضخمها ويزينها الشيطان في عقولهم, يقول لك ومن للثغرات الأخرى؟ سيبقى الناس الآخرون, سقط عنهم الإثم ونُصِرت راية لا إله إلا الله.

فإياك يا عبد الله أن تجمع بين القعود و بين التخذيل وبين التعويق (قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ) فالله سبحانه وتعالى مطلع على قلوبنا, وراجع نفسك هذه التي بين جنبيك لعلها قد خادعتك كما حاولت نفس كعب رضي الله عنه وإخوانه رضي الله عنهم أجمعين.

فقال كعب الحمد لله الذي هداني إلى الصـــدق وأنعم علي بهذه النعمة, أعظم نعمة منّ الله بها علي بعد الإسـلام إذ لم أكذب فأهلك كما هلكوا فإن الله قال لهم شـر ما قال لأحد (سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَـوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَـوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَـى..) لا حول و لا قوة إلا بالله فما قيمة الحياة إذا قعدت عن نصـرة لا إله إلا الله ولم يرض عنك الله سـبحانه وتعالى (فَإِن تَرْضَـوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَـى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِـقِينَ) وصـفهم بهذه الصـفات الذميمة, بالظلم في بعض الآيات وبالفسق في هذه الآية وغيرها.

فهذا الحديث العظيم الذي بيّن كعب رضي الله عنه واعترف, هو قدوة للناس أن يتفحصوا نفوسهم وأن يعالجوها ويردوها إلى الصـواب فسـلف الأمة هؤلاء هم (لَكِنِ الرَّسُـولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ) وما كان يتخلف إلا الأعراب الذين ما فقهوا الدين, ومع ذلك كانوا يظنون أنهم قد آمنوا فلما منّوا على رسولنا عليه الصلاة والسلام وجاؤوا إليه يقولون أننا قد آمنا (قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ).

في الآية التي تليها بيّن لهم صـفات المؤمنين بين لهم حال المؤمنين انتبهوا يا عباد الله (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) الله أكبر, هذا يكفي لأولي الألباب, بيّن لهم صـفة الإيمان إن كنت تريد تكون من المؤمنين, أبرز الصـفات إيمان بالله ورسوله بدون ريب وجهاد في سبيله بالمال والنفس.
ثم عقّب الله سبحانه وتعالى بتلك الصفة العظيمة العزيزة بصفة الصدق, هي الصفة التي أنجت هذا الرجل رضي الله عنه, "وإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وما زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً" كما قال عليه الصلاة والسلام.
فعليكم بالصـدق و احذروا الفجور (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِـهِمْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّـادِقُونَ) فاللهم أدم علينا نعمة الصـدق و اجعلنا من الصادقين برحمتك يا أرحم الراحمين.

فأقول لإخواني المسـلمين في كل مكان: لا يكن, كما قال عليه الصـلاة والسـلام: "لا يكن أحدكم إمعة, إذا أحسن الناس أحسن وإذا أساؤوا أساء" فيوم القيامة تبعث فرداً وتوضع في قبرك وتسأل فرداً, فماذا سـتقول يوم تسـأل عن خذلان لا إله إلا الله؟ ماذا سـتقول إذا جاءك ذلك السـؤال: ما خلّفك؟ ما خلفك وقد أغناك الله سـبحانه وتعالى؟ (إِنَّمَا السَّـبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْـتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ).

فمصـــيبة الأمة اليوم حدث عنها ولا حرج وقد طال القعود لمدة عقود طويلة, فاخرج يا عبد الله بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم, فاغتنموا فرصـتكم و اغتنموا فتح أبواب الجنان فقد صـح عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال: "إن السيف محاء الخطايا" يُغفر للشهيد كل شيء, كل شيء إلا الدين, فإن السيف محاء الخطايا.

و اقتدِ بالذي أُرسـل وبُعث لنا ليخرجنا من الظلمات إلى النور, عِلْمُنا, عِلْمُ جميع البشـر من أهل الإسلام هو من عِلمه عليه الصلاة والسلام, ينزل عليه جبريل الأمين بالوحي المبين ماذا قال؟ قال بلسان عربي مبين, فما حجتكم وقد جعلكم الله تفقهون العربية وتفهمونها؟

يقول في الحديث الصحيح كما في الصحيحين وغيرهما عليه الصلاة والسلام يقول وهو الصادق المصدوق يقسم: " والذي نفس محمدٍ بيده لولا أن أشقَّ على المسلمين ما قعدت خلف سرية تغزو في سبيل الله أبداً" أما تفهمون كلام العرب؟ فهذا خير البرية عليه الصلاة والسلام يقسم بالله أنه ما كان ليقعد عن سرية تغزو في سبيل الله, لسان حالك أنك تستدرك أن هناك أعمالاً أفضل من هذا.

ما تقوم جبهة حتى عندما أفتى العلماء في المرة الماضـية, اجتمع عدد كبير من علماء المسـلمين وأفتوا أن الجهاد فرض عين يوم دخل الروس, ما كانت حجتك حتى لم تخرج؟ ما هي الحجة؟ هي مخادعة النفس التثاقل إلى الأرض, "والذي نفس محمد بيده لولا أشقَّ عن المسلمين ما قعدتُ -في رواية خلاف وفي رواية خلف- ما قعدتُ خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً".

فكيف برجل يزعم أنه يحبُّ محمداً صـلى الله عليه وسـلم ويزعم أنه على منهج محمد صـلى الله عليه وسلم ما خرج في سبيل الله أبداً؟ ولا حول و لا قوة إلا بالله, في زمن الجهاد فيه متعيّن كيف نأخذ عن هذا القاعد فقه الجهاد وإنما فقه الجهاد كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ذلك العالم الرباني المجاهد الذي خرج بنفسـه لقتال التتر, قال: والواجب في أمور الجهاد -أي في الفتوى فيها- أن يؤخذ برأي أهل الدين الصـحيح الذين لهم علم بأحوال الدنيا -والتي منها الجهاد - لا بنظر مَن لهم نظر بظاهر الدين ولا بنظر أهل الدين الذين لا علم لهم بأحوال الدنيا.

أضـرب لكم مثلًا بسـيطاً, مِن حجج من يحتج ويعتذر يقول لا طاقة لنا اليوم بأمريكا وجنودها لأنه يفتي وهو بعيد عن اشتراط الشروط اللازمة للمفتي, لا بد أن يفقه كما قرر ذلك أهل العلم وهو لا يخفى يذكر ذلك منهم أيضـاً ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين: قال لا بد للمفتي والحاكم حتى يفتي أن يكون على علم بفقه الواقع بالحادثة التي حصـلت ويبحث عنها ويسـتنبط عن أمورها ويبحث عن قرائنها وعلاماتها, ثم النوع الآخر النوع الثاني هو فهم وفقه الواجب في هذه الحالة وفي هذا الواقع وهو حكم الله سبحانه وتعالى الذي ينطبق على هذه الحادثة فيفتي.

فأنت لم تخض المعارك المعاصرة, ولم تدرِ كيف يُكَف بأس الكفار, وكيف أن القلة القليلة من أهل الإيمان الذين اسـتيقنوا بالله سـبحانه وتعالى وأيقنوا أن ما عند الله سـبحانه وتعالى خير, الذين استيقنوا أنهم ملاقو الله سبحانه وتعالى بأسلحة بسيطة هزموا الاتحاد السوفييتي.

فيقيسـون دون أن تكتمل لهم الأمور يقول لك عدد الشباب قليل ولا نعرف السلاح وأسلحتنا قليلة, هذا الأمر ليس لكم يا عباد الله إن أمر الفتوى أمرٌ عظيّم جداً.
صـح في الحديث عن نبينا عليه الصـلاة والسـلام في ذلك الرجل الذي ذهب إلى بعض القوم في عهده عليه الصلاة والسلام, وكان قد شُجَّ رأسه وأصابته جنابة فيسألهم عن الحكم ما يفعل, قالوا له لا بد أن تغتسل فأفتوا ولم تكتمل لهم العلوم الشرعية في هذه المسألة ولم يراعوا حال المريض فلما اغتسل مات عليه رضوان الله, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قتلوه قتلهم الله"...

فكيف بمن يتصـدر اليوم للفتوى وعشـرات الآلاف من أعراضـنا انتهكت في البوسـنة والهرسـك وألوفٌ مؤلفة من دمائنا دماء إخواننا سـحقت بالمجنزرات بالدبابات في الشـيشـان, وإخواننا يُحرقون في المساجد في إندونيسيا, وأبناؤنا في فلسطين وأهلنا يسامون سوء العذاب على أيدي اليهود.

أنّى نظرت إلى الإسلام في بلدٍ		وجدته كالطير مقصوص جناحاه

في كل مكان مصـيبة أما اكتفينا وإلى اليوم نقول فرض كفاية! ومن قال بفرض العين خذّل بطرق شتى!, فمن كان في قلبه إيمان قوي يتبع محمد صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام.

وأختم الكلام عن هذا الحديث العظيم بوصـفٍ وَصَـفَ الله سـبحانه وتعالى به الصـحابة الكرام, وصـف بعضـهم عندما تراجعوا عن الجهاد وهم كانوا يطالبون بالقتال يوم أوذوا في مكة وكانوا يعلمون أن لا بد من الرد على الكفار وإلا سيسحقون.
فأجّلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرهم أن يكفوا أيديهم وقال لهم لم أؤمر بالقتال بعد, فلما كتب عليهم القتال تراجعوا رضـي الله عنهم قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً).

فهذا يا عباد الله في بعض الصـحابة الكرام رضـي الله عنهم, فاتقِ الله وراجع نفسـك, هذا قيل في الكرام فكيف تطمئن إلى نفسك عندما تقعد عن نصرة لا إله إلا الله؟ (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ).

هذا هو خداع النفس و التثاقل إلى الأرض, لأي شـيء تتأجل وتتأخر؟ إلى أجل قريب ما الذي سيحصل؟ أعذار لا تنتهي من الدنيا وأمُلك أطول من عمرك.
(لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً) فعالجها سـبحانه وتعالى, بيّن لهم أن السـبب مخادعة النفس بالتعلق بهذا المتاع القليل, فبيّن لهم أنه متاعٌ قليل وأرشـدهم إلى ذلك الخير الباقي والآخرة (قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً).
ثم نبأهم بآيةٍ حاسـمة (أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَـيَّدَةٍ) الشـيطان يخادعك, يخوّف أولياءه, يقول لك لو ذهبت تُقتل, فجاء هذا النص (أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ).

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يشرح صدور المؤمنين للجهاد في سبيله وأن يثبتنا وإياكم على منهج محمد صلى الله عليه وسلم في جميع أموره وشؤونه وفي جميع سننه عليه الصلاة والسلام.

وأحمس نفسـي ببعض الكلام وأحمس المسـلمين حتى نسـتمر على هذا الطريق من باب التذكير بمنهج السلف رضي الله عنهم, فقد كانت لهم أشعار في القتال وفي الغزو, فمنها قول جعفر رضي الله عنه يوم القتال لما حطم الناس حطمهم القتال وارتفعت أصـوات السـيوف وغشـاهم الغبار والنقع, قال بنور اليقين, قلبه يرى كما رأى أنس بن النضـر يقول لسعد كما في صـحيح البخاري: يا سـعد بن معاذ واهاً لريح الجنة إني لأجده من دون أحد, وهو في المدينة يشـم رائحة الجنة من قوة يقينهم رضي الله عنهم, فيقول جعفر:

يا حبذا الجنة واقترابها		طيـبةٌ وبـاردٌ شـرابُها
و الروم رومٌ قد دنا عذابها		عليّ إن لاقيتها ضِرابُها

ويقول الآخر رضـي الله عنه عندما ذهبوا إلى بني لحيان عاصـم بن ثابت بن الأقدح, وقع في حصار شديد من بني لحيان من هذيل, مائة من الرجال وهم عشرة فقالوا له انزل على عهدنا قال لا أنزل على عهد كافر, فما زالوا يحاولون وهو يأبى وقال:

ما علـتـي وأنـا جـلـدٌ نـابلُ		والقـوسُ فيـها وتَّر عنابلُ
الموتُ حقٌ والحياةُ باطلُ		إن لم أقاتلكُم فأمي هـابلُ

رضي الله عنهم وأرضاهم جميعاً.

فمصيبتنا في مقدساتنا عظيمة فيما ينبغي للمسلم أن يقر له قرار.
أختم بهذه الأبيات عن حال القدس وحال الكعبة المشرفة في حجاز رسولنا عليه الصلاة والسلام:

أهالي فلسطينَ احتسَوا أكأسَ الشجى		وجرحُ حجازٍ فيكَ ما عادَ يضمرُ
وليـسَ بـنـو الإسـلام إلا نـجـائـبٌ		بجـرحكَ أضمتهاُ المصيبةَ ضمّرُ
ولـكنـهم رغـمَ الجـراح يقـيـنـهـم		بـعـودةِ أمـجـادِ الخـلافــةِ يـكـبــرُ
وقـد أقسـموا باللهِ أنّ جـهـادهـــم		سيمضـي ولو كـسرى تحدى وقيصرُ

فنرجو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل مَن مضى من إخوانكم شهيداً في سبيله, وأن يمنّ علينا بالقتل في سـبيله لتكون كلمة الله هي العليا, وأن يبرم لهذه الأمة أمر رشـد يعز فيه أهل طاعته ويذل فيه أهل معصيته ويؤمر فيه بالمعروف ويُنهى فيه عن المنكر إنه ولي ذلك و القادر عليه.

اللهم أني أسـألك الهدى والتقى والعفاف والغنى, ربنا آتنا في الدنيا حسـنةً وفي الآخرة حسـنةً وقنا عذاب النار, وصلِّ اللهم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

